

أصول الدين

تأليف
الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد فسر الله الإسلام في مواضع من كتابه مثل قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، ففسره بإسلام الوجه الذي هو انقياد الباطن والظاهر لله، خالصاً وهو محسن في هذا الانقياد بأن يكون على الصراط المستقيم، الذي هو طريق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا

نُفِّرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٦﴾، ففسره بالاعتقادات والإيمان بالله، وما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا وبالإيمان بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله على جميع الرسل، خصوصاً ما سمي بهذه الآية الكريمة من صفوة الرسل أهل الشرائع الكبار، وبالخضوع والانقياد لله ظاهراً وباطناً بطاعته وطاعة رسله، وبين تعالى أن هذا هو الهدى، وأنه لا يحصل الاهتداء بغير هذا الطريق، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فبين تعالى أنه لا يحصل الهدى والاهتداء بغير هذا الطريق كما قال: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وهو الذي هدى به عباده على السنة رسله، خصوصاً الهدى العظيم التام الذي جاء به خاتم الرسل وإمامهم محمد ﷺ من الحق علماً وعملاً واعتقاداً وسلوكاً، وهو الصدق في أخباره النافعة، والعدل في أوامره ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وإذا أردت بيان ذلك والإشارة إليه على وجه التفصيل، فإن دين الإسلام أمر العباد أن يؤمنوا بالرب العظيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الذي أحاط بكل شيء رحمة وعلماً وقدرة ومشئته، فإنه بكل شيء علیم، وعلى كل شيء قدير، ونفذت مشيئته في جميع الموجودات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وقع كمال قدرته ومشئته، فإنه حكيم في كل ما خلقه من المخلوقات، وحكيم في

جميع التصرفات، وحكيم في كل ما شرعه من الشرائع، فما خلق شيئاً عبثاً بل نفس خلقه صادر عن حكمته، وما أوجده من المخلوقات فإنه مشتمل على غاية الحكمة، وهو الحسن والإتقان والانتظام الذي تشهده الأبصار والبصائر، وتصريف الأمور كلها وتقليبها من حال إلى حال كله على سعته موافق للحكمة والرحمة والمصلحة، وكذلك ما شرعه من الشرائع وحكم به من الأحكام الشرعية بين عباده جميعه أصوله وفروعه وغاياته مشتمل على الحكمة التي لا غاية لها ولا منتهى لكمالها وحسنها.

وكما أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وله الحكمة في خلقه وأمره وقضائه وشرعه، فإن ذلك كله مملوء من رحمته التي من آثارها الخيرات والبركات وأنواع المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية الظاهرة والباطنة، وفيها من النعم والخيرات ما لا يعبر عنه المعبرون، ولا يقدر أن يصفه الواصفون، بل هي نعم لا تعد ولا تحصى ولا يحصي أحد ثناءً عليه: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وهذا أمر قد اعترف به البر والفاجر؛ ولهذا أخبر الله عن المشركين أنهم يعترفون أن الله هو الخالق وحده، المالك وحده، المدبر وحده، المنعم وحده، وإنما يتخذون أوثانهم ومعبوداتهم، يزعمون أنها تقر بهم إلى الله زلفى، وإلا فهم يعلمون عجزها وفقرها وغير ذلك من صفات النقص، فإذا علم أن الله تعالى هو الذي له الأسماء العظيمة الحسنى، والصفات الكاملة العليا،

وأنة المتفرد بكل كمال وعظمة وجلال، وأنه الخالق الرازق المدبر، ومن سواه مخلوق فقير إليه مدبر، وأن جميع النعم والفضل والخيرات والمنافع من الله وحده، وأنه الدافع لكل شر وسوء، فهو الذي يستحق أن يكون هو الإله المألوه وحده ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛

أي: هو إله أهل السماء وإله أهل الأرض، الذي يعظمه ويحبه ويدعوه أهل السماء والأرض دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهذا هو الغاية والمقصود الأعظم من خلق جميع المكلفين ليعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وليعبدوه وحده لا شريك له فيخلصوا له الدين، يقومون بالإيمان والإسلام والإحسان على الوجه الذي ينبغي، على وجه الإخلاص والذل لله الواحد القهار، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فأخبر أنه أوحى إلى جميع رسله أن يعترفوا بإلهيته وحده، وأن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، وهذه العبودية التي أمر الله بها عباده؛ هي طاعته وطاعة رسوله بتصديق خبر الله ورسوله، وامتنال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهْي الله ورسوله، وذلك هو القيام بحقه تعالى على عباده، وبالقيام بحقوق العباد بحسب حالهم ومراتبهم، وذلك كله مبناه على العدل.

فإن أصل العدل وأساسه عبادة الله وحده لا شريك له، فإن توحيده أوجب الواجبات، وأفرض الفرائض شرعاً وعقلاً، والإخلال بالإخلاص أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وأي ظلم أعظم من ظلم من تفرد الله بخلقه وتدبيره فعبد سواه، وتفرد بالإحسان إليه وإيصال الفضل إليه بكل سبيل، فصرف شكره لغيره.

وإذا كان الشرك أظلم الظلم، فما الظن بما هو أقطع من الشرك، وهو الإنكار والإلحاد والاستكبار عن عبادته أو عن الاعتراف به، فكل من لم يؤمن بالله ولم يخلص أعماله لله فهو ظالم، على تفاوت في عظمة الظلم وشناعته، وكذلك حكمه وأحكامه بين عباده في المعاملات والحقوق الخاصة والعامة على كثرتها وتبهرها، كل ذلك مبني على العدل الذي تعترف بحسنه وكماله العقول السليمة والفطر المستقيمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقد ذكر الله أصول العدل والإحسان في أصول الدين وفروعه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ آلَتِكُمْ يُوعَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

فتأمل هذه الأوامر وما فيها من الخيرات، وما تضمنته من أداء الحقوق التي هي أفرض الحقوق شرعاً، وعقلاً، وما نهت عنه من أصناف المحرمات

المحتوية على الظلم، والشر، والضرر، والفساد، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقد جمعت هذه الآية الكريمة الأمر بكل عدل وإحسان وخير، وحثت على أداء الحقوق العامة والخاصة، ونهت عن كل منكر وفحشاء في حق الله، وبغى على عباد الله بدمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وقد جمع الله أيضاً أصول العدل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

كما جمع أصول الشر والظلم في الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهذه المحرمات في كل شريعة، وكل زمان ومكان؛ لأن الشر والضرر والفساد ملازم لها حيثما كانت، وقال تعالى في بيان أصول البر والتقوى التي هي روح العدل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على أصول الشريعة وبيان صدقها وعظمتها وكمالها ومراعاتها للعدل والقسط والمصالح في كل زمان ومكان، وفي كل حالة من الأحوال، وتفاصيل الشريعة كلها تفصيل لما نصّت عليه هذه الآيات، وذلك أكبر برهان على أنها ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. عالم بمصالح عباده، رحيم بهم حيث حثهم على ما ينفعهم، وحذرهم عما يضرهم، وأرشدهم إلى كل خير وهدى، ونهاهم عن كل شر وسوء وردى، وهي كلها حق مصدق، يعترف أولوا الألباب بها، وتخضع العقول الصحيحة لها، ويعلم أن كل ما ناقضها وخالفها فإنه شر وغي وضلال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبا: ٦].

فأخبر أن الذين أوتوا العلم الحقيقي هم الذين يرون ويعترفون أن الذي أنزل على محمد ﷺ هو الحق في ذاته وأوصافه، وأنه يهدي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الله العزيز الحميد، يعني: ويرون أن ما خالفه وناقضه هو الباطل في ذاته وأوصافه، وما يوصل إليه من غي وضلال، وجهل وشر، فهو تعالى الحق، ودينه حق، ووعدده حق، وقوله حق، وما خالف ذلك باطل.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]،

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، والحق هو الصلاح وبه الصلاح المطلق، وضده هو الفساد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فأخبر أن الحق لو كان تابعاً لأهواء كل مخالف للرسول لحصل منه الفساد العام والضرر العظيم، فكل شريعة وقانون وسياسة للمخلوق تنافي ما جاء به الرسول، فإن شرها مستطير، وضررها كبير، والتجربة والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، وحيث كان الحق وصف الدين اللازم الملازم قاوم كل ما عارضه من جيوش الباطل المتكاثرة الجبارة، فصمد لها وقاومها وأبطلها ومحققها، وهو لا يزال - والله الحمد - في كل وقت مستعداً لمقاومات المعتدين ومنازلة الظالمين وتحدي كل معتد كفار أثيم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فانظر إلى حالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عانى من مقاومات المبطلين، وكيف أيداه الله بالحق على جميع طوائف الظالمين مع حقنهم وتكالبهم وتنصرهم على باطلهم حتى خرج منتصراً بالحق الذي أيداه الله.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

يَخْطَفُكُمُ النَّاسُ فَيَأْوِنُكُمْ وَيَدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦]، ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ثم تأمل ما قام به الخلفاء الراشدون ومن معهم من الصحابة الأخيار، ومن بعدهم من الملوك العادلين، وكيف فتحوا القلوب بالعلم والإيمان، وفتحوا الأمصار، والحق معهم ملازم لهم والنصر من الله مؤيدهم، ولم يزل الدين الإسلامي قد خضع له أهل المشارق والمغارب، وقد تقبلوه وقبلوه بما فيه من العدل والرحمة والخير الذي لا يوجد في غيره.

فلما تحللوا بعد ذلك عن هذا الدين الحق شيئاً فشيئاً تقلص عزهم، وسلطت عليهم الأعداء من كل مكان، وهو مع كثرة الأعداء وشدة حنقهم واتفاقهم على محقه وإبطاله، ومع قلة أهله الحقيقيين ووقوع التخاذل بين المنتسبين إليه - مع ذلك لم يزل - والله الحمد - قائم الأصول، محفوظاً بحفظ الله، مقاوماً كل جيش يغزوه من أصناف الكفار المحاربين المعلنين محاربتة، ومن الزنادقة المنافقين الملحدين الذين يظهرون إحداهم، والذين يخفونه ويعملون في الباطن على القضاء عليه، ولكنهم في كل وقت مخذولون يبدون المقاومات المتنوعة فيظهر للخلق باطلهم وإحداهم ومكرهم.

ولا يروج باطلهم إلا على من لا بصيرة له ولا حق معه، ولما علموا بذلك وعرفوا أنه ليس في إمكانهم مقاومة الحق سعوا في إضعاف الحق من قلوب من ينتسب إليه، ففتحوا المدارس التي تحت سيطرتهم، وطرّدوا عنها علوم الدين أو جعلوه اسمًا بلا مسمى، ليتمكنوا من بذر باطلهم في قلوب المتعلمين فيها، الذين ليس عندهم علم بالحق يقاوم مكر هؤلاء وخداعهم.

وكان هذا من أكبر النكبات التي أصيب بها المسلمون، ومن أكبر السلاح لأعداء الإسلام، حتى صار الخريج منها قد تسلح بسلاح أعداء الإسلام، وصار أكبر عون على من ينتسب إليهم دينًا وقومية ووطنًا، ففضل دين الأجانب الأعداء وقوميتهم ووطنيتهم على دينه وقومه ووطنه، فزال دينه وفسدت أخلاقه وذهبت مروءته وإنسانيته، فيتعين على كل أحد السعي في إصلاح التعليم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتعاليم الدينية ومراعاة الأخلاق والمحافظة على المتعلمين وملاحظتهم؛ فإن إصلاح التعليم هو السبب الوحيد لحفظ الدين، ومقاومة كل شر وفساد، وسبب لصلاح الأمور كلها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وذلك بالتعليم والإلزام بالحق علمًا وعملاً، فمن أهمل أولاده ومن [يقوم] عليهم مما هو مسترعى عليه، فقد عصى أمر الله وأمر رسوله، وعرضهم للعقوبات، فكيف إذا أهملهم عن التعاليم النافعة، والآداب

الصالحة، وأشغلهم بضدها من التعاليم الضارة؟ فما أعظم خسارة من خسر أولاده، بل ما أعظم حسرة من كان أولاده الذين كان يرجو نفعهم بإهماله إياهم، وتوجيههم للعلوم الضارة، قد صاروا أعظم نكبة عليه وخسر دينه ودنياه.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، وذلك بالتعاليم المنحرفة، وهذه المدارس الإلحادية تخرج الناشئين فيها من الأديان كلها؛ لأن هذا هو الغرض المقصود بها، ولأنها تلقي في أذهانهم قاعدة من أخبت أو أخبت أصول الإلحاد؛ وهي أن العلم الحقيقي عندهم ما يدرك بالحواس فقط، وما لم يدرك بالحواس فليس عندهم بعلم، ولا يعد من الحقائق الصحيحة.

وهذه القاعدة الخبيثة خالفوا فيها جميع الأديان الصحيحة، بل خالفوا فيها جميع العقلاء، فإن مدارك العلم كثيرة متنوعة؛ مدركات الحس ومدركات العقل ومدركات الأخبار الصحيحة، والنوعان الأخيران مدركاتهما أعظم وأكمل وأوسع، فإذا نفيت لم يبق إلا المدركات التي تدرك بالحس، وهي دائرة ضيقة توقع أهلها في المهالك، فأعظم آثارها وأبطلها إنكار علوم الغيب كلها؛ وهو إنكار جميع ما أخبرت به الرسل، والكتب المنزلة من السماء من توحيد الله، وتفرد بصفات الكمال، وتوحده بالخلق والتدبير، وإنكار البعث والجزاء في الدار الآخرة، وإنكار الملائكة والجن،

وجميع ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أنباء الغيب الواسعة المنتشرة التي قامت البراهين المتنوعة على حقها وصدقها وعدم الريب فيها، فأنكرها هؤلاء الملحدون، كما أنكرها أسلافهم الدهريون الذين قالوا:

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجنَّة: ٢٤].

وقد علم أن آيات التوحيد، وآيات البعث، وآيات صدق الرسل والبراهين الدالة على ذلك التي لا يمكن إحصاؤها كلها تبطل قول هؤلاء الملحدين، وتخبر أنهم كما خرجوا من الدين خرجوا من العقل الصحيح، وخالفوا فطرة الله التي فطر الله عباده عليها، فجميع ما أخبر الله به في كتبه وعلى السنة رسله من أمور الغيب التي هي أعلى أنواع الصدق أنكرها هؤلاء الملاحدة.

ومن المعلوم عند العقلاء المعتبرين أن من لم يؤمن بذلك الحق المبين الذي قامت الأدلة والبراهين بصدقه وحقيقته ويقينه لم يكن عنده علم وحق يؤمن به ﴿ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتُهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ٦ ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ٧ ﴿ سَمِعَ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[الجنَّة: ٦ - ٨].

وقد تحدث الرسل عليهم الصلاة والسلام جميع من كذبهم أن يعارضوا ما جاءوا به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فظهر عجز المكذبين، وبانت مكابرتهم، وأنهم ليسوا على شيء، وأنهم كانوا

كاذبين، وقد تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأخبر أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، والتحدي قائم منذ نزل القرآن وإلى أن تقوم الساعة، وعَجَزُ المعارضين المكذبين قد ظهر لكل أحد، وهذا من أعظم البراهين الموجبة لتصديق جميع ما أخبر به من علوم الغيب والشهادة.

كما أن من أعظم البراهين أحكام هذا الدين، وصدق ما جاء به من الأخبار عن الأولين والآخرين، وعن جميع أمور الغيب، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض خبراً من أخباره، كما أن أحكامه أعدل الأحكام وأهداها وأقومها، وبها الصلاح المطلق في كل زمان ومكان، وقد بان لكل عاقل أن الأمور العامة والخاصة لا يمكن صلاحها واستقامتها واعتدالها، حتى تطبق على أحكام الله بين عباده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ولا ينكر هذا ولا يكابر فيه إلا أحد رجلين:

- إما معاند مكابر ينكر الحقائق الواضحة والبراهين الساطعة.

- وإما ضال جاهل من أعظم الضالين.

فالعناد والضلال لا يستغرب على صاحبهما إنكار أعظم آيات الله، وأعظم البراهين والمعجزات الدالة على صدق الرسل وحقية ما جاءوا به، فهؤلاء داخلون في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ

يُسْحَبُونَ ﴿الآيات [غافر: ٧٠-٧١]، فهم كذبوا بجميع آيات الله التي هي
أبين الآيات وأعظمها وأوضحها، وبما أرسل الله به رسله من الحق النافع
والصدق.

فصل

وحيث كان الملحدون المكذبون بآيات الله، وبما أرسل به رسله قد علموا أنه متى تقابل ما جاءت به الرسل من الحق مع باطلهم لم يكن لباطلهم أدنى ثبوت بل اضمحل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فحيث علموا بهذا الأمر مكروا مكراً كباراً.

﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٦-٤٧]؛ الذي من جملة ظهور الحق على الباطل وانتصاره في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

فمن أعظم مكرهم ما أشرت إليه سابقاً بإضعاف علوم الدين أو منعها من مدارسهم، ومنها أنهم قالوا: يجب أن تكون الأفكار حرة وألا تتقيد بشيء من القيود؛ وذلك لقصد التحلل عما جاءت به الرسل والأديان الصحيحة؛ لأنهم إذا زعموا أن لكل أحد فكره، وأنه مهما خطر بباله من الأفكار، والعقائد الهدامة فله أن يبوح بها، ويدعو إليها، وألا يعارضها بعقيدة صحيحة ولا فاسدة، كان مضمون هذا وجوب التحلل عن الأديان، وعدم التقيد بها، وهذا هو الإلحاد والزندقية.

وهؤلاء أعظم جرماً وأشد طغياناً من إخوانهم السابقين الذين ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فأولئك معهم نوع اعتراف بالله صحبه الاستكبار عن الانقياد للرسول، وأما هؤلاء فقلوبهم منكرة للحق الذي جاءت به الرسل وهم مستكبرون عن الانقياد لرسول الله وكتبه، بل مستكبرون عن الإيمان بالله.

ومن المعلوم الذي لا يتهمى فيه العقلاء أن إطلاق الحرية للأفكار، وعدم تقيدها بالحق الثابت الذي قامت البراهين على صدقه وحقيقته هو الكفر بالرسول، وهو الفوضى، الذي يؤدي بأهله إلى الهلاك الدنيوي قبل الهلاك الأخروي، ففوضوية الأفكار هي فوضوية الأفعال، فعلى ذلك فليفعل كل أحد ما أراد من فسق وفجور وتهتك، وليطلق لحيته ما شاءت نفسه الأمانة بالسوء من فحشاء ومنكر وبغي، لا يتقيد بشريعة ولا بمروءة ولا بإنسانية، بل يتنقل من طور الإنسانية إلى طور البهائم، بل إلى طور الشياطين وهذا ما أرادوه، وهذا ما وصلوا إليه - المتوغلون منهم - والباقون يسعون خلفهم.

ثم إنه من المعلوم أن حرية الأفكار وإعطاء كل أحد أن يتكلم بما يريد ويشتهي، والإرادات متباينة، والأغراض مختلفة أن في هذا هلاك الحكومات والشعوب، فالخلق في غاية الضرورة إلى ضابط يضبطهم، وإلى قوانين صارمة قوية تحجزهم عن الشرور المتنوعة، ومتى أعطوا حريتهم مرجت أقوالهم، واختلت أعمالهم، وتباينت أفعالهم فوقعوا في

الفوضى المهلكة، والشروع القاتلة، والأمم التي تعمل على هذا هي ساعية في طريق هلاكها الدنيوي قبل الهلاك الأخروي.

فالأفكار الصحيحة هي الأفكار السليمة المتقيدة بالحق التي غايتها الحق وسيرها مع الحق، وهي الأفكار التي دعا الله عباده إلى التفكير فيها في آياته المتلوة وآياته المشهودة؛ ليُعرف الحق ويُعمل بالحق، وذلك هو الصلاح للظاهر والباطن، وحيث قد علم أهل العلم والهدى والرشد أن ما جاء به الرسول هو الحق، وهو الذي يهدي إلى كل خير، كان الواجب المتعين والفرض الأكيد التقيد بهذا الحق علمًا وإرادة وعملاً، فتكون الأفكار حائمة حول هذا الحق المبين لاستخراج علومه ومعارفه النافعة، وحول إرشاداته ومواعظه لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا التقيد الذي هو أفرض الفروض على المكلفين هو ينبوع العلم وأصل الخير، ومدار صلاح الدين والدنيا عليه، وهو المانع من الفوضى، ومن الانطلاق في الهلاك، فيتقيد العبد بهذا الحق، ولا يتقيد بأي قول يعارضه، ولا بأي عمل ينافيه ولو صدر من أكابر الناس؛ لأن ما سوى الرسول ﷺ غير معصوم.

وأما ما جاء به الكتاب والسنة من الحقائق في الأصول والفروع فهو محكم معصوم يدل على كمال اليقين العلمي واليقين العملي ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿ [الإسراء: ٩]، ﴿ سَرُّهُمْ ءَايَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي
أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

وإذا أردت أن تعرف الفرق العظيم بين من يدعو إلى تحرير الأفكار
من كل القيود، وبين من يلتزم الحق الذي جاءت به الرسل ولا يبالي بمن
خالف ذلك، وبين من يلتزم العمل بالحق، وبين من يمشي بعمله مع
غريزته ودواعي نفسه فاضرب لذلك مثلين:

أحدهما: من قلبه خال من التزام الحق والعمل به، وهو يجري في أعماله
وأقواله على مقتضى ما تدعوه إليه نفسه من الإرادات المتنوعة، فإنه لا
يبالي بالظلم والبغي والفحشاء والمنكر، فإن النفس أمارة بالسوء، فمن
أطاعها طاعة عمياء قادتته إلى الهلاك والخسار، تجد مثل هذا أفكاره
متضاربة ونظرياته متناقضة وعلومه غير صحيحة، فهو في أمر مريج في
فكره وسعيه وعمله وجميع تصرفاته.

والثاني من الرجلين: رجل عرف الحق والتزمه، وعرف أن ما جاءت
به الرسل حق، وأن الكتاب القرآن وسنة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بكل
علم صحيح، وبكل حق وصدق، وبكل هدى ورشاد، وبكل خير عاجل
وآجل؛ فحصر أفكاره في هذا الميدان الجليل، واستخرج من كنوز الكتاب
والسنة كل حق وهدى ورشد، وتحلت نفسه بكل خلق جميل يدعو إليه
الشرع، وتحلت عن كل خلق رذيل، فصار عارفاً بالحق، عاملاً بالحق، فهذا

لا تسأل عما يحصل له من المعارف الجليلة، والعلوم اليقينية، والأخلاق الجميلة، والسير في جميع تصرفاته على العدل الذي هو الصراط المستقيم، فهل يستوي هذا وذاك؟

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

فالأول: ضال غاو ساع إلى الهلاك والخسران.

والثاني: مهتد عالم بالحق، عامل به يسعى إلى كل خير وبر وكرامة.

والمقصود: أن الملحدين والمغتر بهم أبدوا وأعادوا في الدعوة إلى حرية الأفكار، والغرض من هذا: التحلل من أديان الرسل، ومن الأخلاق الجميلة؛ لتنتقل النفوس فيما شاءت فتكون البهائم أحسن حالاً منها، والعقول والأفكار متفاوتة في إدراكها، وفي مقاصدها وفي غاياتها كالإرادات، بل الإرادات تبع الأفكار، ولو أنهم قيدوا أفكارهم بالحق الذي جاءت به الرسل وإراداتهم باتباع ما نزل الله، لكان خيراً لهم وأقوم.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص: ٥٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، فمن كان هواه تبعاً لما جاء به الرسول لا يزيغ عنه، فهو المؤمن الحقيقي، وهو الذي قد هدي للتي هي أقوم في علومه ومعارفه وأخلاقه،

وهو الذي اطمأنت نفسه إلى الصدق والحق، فإن الصدق طمأنينة،
والكذب ريبة، والباطل صاحبه في أمر مريع.

فصل

ومما رَوَّج به الملحدون باطلهم وعلومهم المخالفة للدين أنهم زخرفوا لها العبارات، فسموها تجديداً ورقياً وتقدماً ونحوها من الأسماء التي يغرر بها ويغتر بها من لا بصيرة له، وسموا الحق الذي جاءت به الرسل جموداً ورجعية ورجوعاً إلى الوراء وتحديراً، كما قال تعالى عن أسلافهم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

فأخبر تعالى أن هذا دأب أعداء الرسل في كل زمان أنهم يزخرفون العبارات لتحسين باطلهم وتقييح ما جاءت به الرسل، وأنهم يتواصون بذلك، ويفترون على الله الكذب، وأنه يغتر به من لا علم له ولا بصيرة ولا إيمان، فهؤلاء أخذوا كل ما افتراه الأولون من أسلافهم المكذبين، وزادوا زيادات، كم اصطادوا فيها من ضعفاء البصائر.

وليس ما جاءت به الرسل جموداً ولا رجوعاً إلى الوراء، وإنما هو الحق والنور والحياة والرشد الذي لا حياة للوجود ولا للقلوب إلا به، ولا نور إلا باقتباس نوره، وهو الموقظ للهمم والعزائم إلى كل خصلة حميدة،

وإلى كل رقي صحيح وتقدم نافع، فإن من أصول الشريعة الكبرى العمل بالأسباب النافعة، والحث على كل عمل ومصلحة، والاستعانة بالله في تحقيق ذلك، ومن المعلوم أن من تحقق بهذين الوصفين: بذل المجهود والاستعانة بالمعبود، فإنه لا يزال في تقدم مطرد في إصلاح الدين، وإصلاح الدنيا المعينة على الدين.

في الصحيح عنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز».

وهذا شامل للأمر بالحرص على ما ينفع في العاجل والآجل، وكم في كتاب الله من الأمر بالأعمال الصالحة النافعة، والأمر بالاستعانة بالله التي هي روح الأعمال، وبها قوامها، فإن من استعان بالله كفاه وأعانته وقواه وأيده بروح منه **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣].

وقال تعالى في الأمر بالصبر على الجهاد ومقاومة الأعداء والترغيب في ثواب ذلك: **﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾** [النساء: ١٠٤]، **﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [الأنفال: ٤٦]، فهذا الأمر بملازمة الصبر على كل عمل نافع، والبشارة لهم بمعية الله ومعونته.

وأما العلوم المادية الخالية من روح الدين وروحه، فإنها تقدم إلى الهلاك والدمار، وتقدم إلى هدم كل خلق جميل والاتصاف بكل خلق رذيل، والمشاهدة والحس أكبر شاهد على هذا، وذلك أنه من الممتنع المحال أن

يحصل التقدم الصحيح إلا إذا صحبه الدين الصحيح الملازم للحق، فإن الباطل وإن كان له نوع صولة، فأخره الزوال والاضمحلال، ومنتهاه الخسار والهلاك والتبار.

فعند هؤلاء الملحدّين أن التجديد والرقي هو الاندماج في معنوية الأجانب أعداء الأديان كلها، وزوال شخصياتهم في شخصيات أولئك، والتشبه بهم في أخلاقهم ولباسهم وعوائدهم الدقيقة والجليلة، و«من تشبه بقوم فهو منهم»، فيرون البقاء على أخلاق دينهم وقومهم التي هي الأخلاق العالية، يرون البقاء عليها جموداً، والانحلال عنها هو الرقي، فاستبدلوا الأدنى الخسيس بالأعلى الكامل النفيس، فصاروا مع أعدائهم في ظاهرهم وباطنهم، وصاروا بذلك أكبر سلاح للأعداء على دينهم وقومهم، وبهذه الحال تنحل معنوياتهم، ويندمجون في غيرهم في كل شيء، وهذا أبلغ ما يريده الأعداء من المتسمين بالإسلام.

فصل

ومما يروج به المنحرفون باطلهم لهجهم الشديد بالثقافة العصرية زاعمين أن الأخلاق لا تنهذب ولا تتعدل إلا بها، ويطنون في مدحها والثناء عليها ومدح المتصفين بها، وذم من لم تكن له هذه الثقافة، والسخرية منه، وهم يفسرونها تفاسير متباينة منحرفة، كل يتكلم بما يخطر له؛ لأن العلوم إذا كانت فوضى والأخلاق تتبعها هكذا يكون أهلها لا يتفقون في نظرياتهم وأعمالهم وأخلاقهم، ولا يمكننا شرح ما يقولونه عن هذه الثقافة المنحرفة، ولكنه قد علم أهل العلم والحجا وأهل العقول الراقية أن الثقافة التي يلهجون بها هبوط أخلاق، وذهاب المعنويات الصحيحة والزهو والعجب والكبر الذي هو أكبر داء يبتلى به العبد، وإنما الثقافة الصحيحة والتهذيب النافع هو ما جاء به الدين الإسلامي، فإنه محال أن تنهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضنة وأعمالها، والمشاهدة أكبر شاهد على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن إصلاح الأخلاق واكتسابها الفضائل، وعجزت عن ترفعها عن الرذائل، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح، ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة والأعمال إلى الخير والهدى والصلاح، ويزجرها عن كل شر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للظاهر

والباطن، للعقائد والأخلاق والأعمال، حاث على كل فضيلة، زاجر عن كل رذيلة، فروح ما دعا إليه الدين الإسلامي بالإيمان بالغيب؛ المتضمن للإيمان بالله العظيم، وما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا، والأفعال الحميدة، والتصاريف السديدة، ويتضمن الإيمان بالجزاء العاجل والآجل عن الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة التي لا يعرف تفاصيلها إلا من جهة الرسل، وهي التي تزرع في القلوب الرغبة في فعل الفضائل والخيرات، والتنافس في اكتساب الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق، وتزرع فيها كراهة الشرور والرذائل، وهي التي يكون لها التأثير العظيم في إصلاح الأفراد والجماعة، قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ اللَّهُ مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

فهو الذي يوجه الأفكار والإرادات والأعمال إلى كل خير، ويزجرها عن كل ضرر، ويأمرها بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهاها عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دماهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم.

وأما علوم المادة المحضة: فإنها جافة لا تنهض بأصحابها إلى مكرمة، ولا تزجرهم عن منكر وسوء، وإنما نفوسهم آلية محضة أخس من نفوس السباع الضارية، لا تسعى إلا إلى أغراضها مهما كانت - فكم بين قلب

مملوء من الإيمان بالله، ومن الرغبة في ثوابه ورضاه، والخشية من سخطه وعقابه، وأخلاقه أكمل الأخلاق وأفضلها، قد أثر هذا الإيمان وتوابعه في توجهه وتوجيهه وسعيه، فكانت أعماله سالحة، وكان مخلصاً لله ومؤدياً لحقوق عباده يرفعى العهود والأمانات، ويحترم الحقوق والمعاملات، قد اطمأن كل أحد في ثقته وأمانته وقيامه بما عليه من الحقوق - كم بين هذا وبين من هو بضده ليس في قلبه من الإيمان مثقال ذرة، ولا رغبة في الخير ورهبة من الشر، لا يرفعى العهود والأمانات، ولا يطمئن إلى ثقته كل من علمه وخبر حاله، ولا عنده خشية لله تردعه عن المحرمات والخيانات، قد هبطت به أخلاقه إلى أسفل سافلين، ثقافته وهيمته مصروفة إلى تنميق بدنه وشعره، وتجميل لباسه وهيئته وكلامه، وليس وراء هذا شيء إلا العار والدمار لما هو عليه من الأخلاق الهدامة لأحواله ولمن يتصل به، فبين هذا وهذا كما بين السماء والأرض، وهذا الفرق العظيم عائد إلى الاتصاف بالثقافة العصرية الجافة، أو الثقافة الدينية التي روحها الرحمة والعدل والقسط والأمانة والوفاء بالحقوق.

فأعظم نعمة ينعم الله بها على العبد أن يكون عنده بصيرة يبصر بها الأشياء على ما هي عليه، فيعرف الحق ويعمل به، ويعرف الباطل فيدعه، والله هو الموفق وحده، ولا تنظر إلى من تسمى بالإسلام ونبذ أخلاقه وراء ظهره، وتحتج به على الإسلام والمسلمين في صفته وجموده وهبوط أخلاقه، فإن الإسلام والمسلمين الحقيقيين يتبرءون ممن هذه حاله، وإن

تسمى بالإسلام، وليس له منه إلا رسمه، فإن الدين الإسلامي دين الرفع والعدة والرقى الصأى، فتعاليمه وإرشاداته وأخلاقه وأعماله كلها فى غاية الإأكام والانتظام، وهى الغاية فى توجيه المتصفين بها إلى كل خير وصلاأ وإصلاأ، كما هو معروف عند كل أأما كان عليه المسلمون الأولون من الكمال، والقيام بجميع المقومات الدينية والدينوية، وبهم يضرب المأل فى الكمال الإنسانى الذى ليس له نظير، فمن أراد أن يعرف تأثيرات الدين الجميلة فلينظر إلى هؤلاء، وأما من أراد المكابرة والتأير، فله نظر غير هذا، والله المستعان.

فصل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

أخبر تعالى في هذه الآيات وغيرها أن المكذبين بالرسول والجاحدين لآيات الله، إنما حملهم على ذلك الكبر الذي في صدورهم واحتقارهم واستهزاؤهم بما جاءتهم به الرسل وفرحهم بعلومهم المنافية لعلوم الرسل، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

وهذا الذي ذكره الله هو أفضع وأشنع آثار الكبر الذي هو شر الأخلاق، الذي من في قلبه مثقال حبة منه لا يدخل الجنة، وهكذا خلف هؤلاء السلف الطالح؛ فإنهم قد اتفقت كلمة سفهائهم ومعانديهم أنهم لا يؤمنون، ولا ينقادون إلا لما دخل تحت حواسهم وتجاربهم، ونظرياتهم، وما سوى ذلك أنكروه، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد علم عقلاً وشرعاً وفطرة أن العلوم والحقائق التي لا تدخل تحت الحواس، وتدرّك بالعلوم التي جاءت بها الرسل، وبالعقول والفطر السليمة قد علم أنها أكمل العلوم وأقواها وأنفعها، فهم جحدوها رأساً إلا ما أحاطت به معارفهم الضئيلة مما يدخل تحت الحواس، فلو فُرضَ الفرض المحال أن جميع العلوم المدركة بالحواس قد أحاطوا بها، لكانت ضئيلة جداً بالنسبة إلى علوم الرسل ومدركات العقول، فكيف وما أدركوه من علوم الطبيعة والكون قليل بالنسبة إلى ما لم يعرفوه، وهم معترفون بذلك، ولا يزالون يحدثون نظريات وتجارب يحكمون عليها، ثم بعد ذلك يتبين لهم أخطاؤها، ويستأنفون غيرها وهكذا، فإذا كان هذا قصورهم وتقصيرهم في علوم المادة التي إنما تكبروا وافتخروا بعلمها، فكيف بالعلوم العظيمة التي لم يشموا رائحتها؛ علوم الشرع وأصوله وفروعه، وعلوم الغيب وتفاصيل ما أخبر الله به وأخبرت به رسله؟! قال تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الآية [فصلت: ٥٣].

فقد أرى الله عباده في هذه الأوقات من مخترعاتهم، ومما عملته أيديهم من الخوارق والآيات ما يزداد به المؤمن إيماناً، وتقوم به الحجة على المعاند المكابر.

فهذه الكهرباء وما نتج عنها من الأعمال العظيمة المعروفة، وهي من أعمال البشر الذي علم الله الإنسان ما لم يعلم، فقبل أن يشاهدوها

لو قيل لهم عن بعض أفعالها: إنها ستكون وتقع، لبادروا بالإنكار كما بادر أسلافهم من المكذبين للنبي ﷺ حين حدثهم بالإسراء والمعراج، مع أنها من آيات الرسل وخوارقهم التي لا تزال يشاهد نظيرها أو ما يقاربها، فإذا كانوا يجحدون لما لم يحيطوا به علمًا، وقد حدث من المخترعات البشرية ما يكذبهم، ويبطل الأصل الذي به يحتجون مع أن هذه الخوارق من صنع الآدميين - والله هو الذي علمهم إياها - فكيف ينكرون ما أخبر الله به وأخبرت به الرسل من أمور الغيب؟ إذ لم تدخل تحت مداركهم ومعلوماتهم، وعجزت عقولهم عن إدراكها، وهذه الحالة هي دأب الأمم المكذبين للرسل إذا أخبرتهم الرسل بما لم يعرفوه أنكروه وجحدوه واستكبروا عنه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبا: ٧ - ٨].

وهل أعظم شقاء وضلالًا ممن ينكر قدرة الخلاق العظيم، وهو يشاهد من آياته في الآفاق والأنفس أمورًا كثيرة تبطل حجته، وتزهق باطله:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ ﴿٥٢﴾ أَنْوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

فطغيانهم الشنيع وكبرهم البليغ حملهم على هذا القول الفظيع، وهم

أحق بالجنون؛ إذ زعموا أن هذه الموجودات العظيمة التي هي في غاية الإتقان والانتظام في خلقها وتصريفها وتديرها، وغاياتها الحميدة، وحكمها البديعة - زعموا أنها وليدة المصادفة وآثار الطبيعة، من غير خالق خلقها، ولا مبدع أبدعها وأتقنها، مجرد ما ينظر العاقل ويتصور قولهم هذا يعلم أنهم قد ابتلوا ببلية هي أعظم البلايا، وكيف سولت لهم نفوسهم أن يتفوهوا بهذا القول الذي هو أكبر معبر عن ضلالهم وجهلهم و حماقتهم، بل هو من أقوال المجانين الذين يهذون بما لا يدرون، فمن تأمل بعض المخلوقات وما أودعها الله من الخلق العجيب، والنظام المحكم والتدابير العجيبة جزم جزمًا لا يُمتري فيه بكذب هؤلاء وافترائهم في جحدهم، ومكابرتهم للمحسوسات، فضلًا عن المعقولات وما جاءت به الرسل.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦]، ﴿ وَقَالُوا لَئِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٤٩) ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١]؛ أي: من الكبر الذي في صدورهم، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الآيات [الإسراء: ٥١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ